جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بكفر الشيخ

المؤتمر الدولي الأول تحت عنوان : "البعد الإنساني في التراث العربي والإسلامي"
٢٩ من ذي الحجة ١٤٤٢ هـ = الموافق ٨ أغسطس ٢٠٢١م

"البُعْد الإنساني في السيرة النبوية سلماً وحرباً دراسة تحليلية في ضوء الدعوة الإسلامية"

إعداد الدكتور

أحمد المعداوي مكي العفيفي

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الكريم، ذي الفضل العميم، خلق الإنسان وخصَّه بالتكريم، وبعث رسوله محمداً رحمة للعالمين، ونبراساً للمهتدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء داعياً لكل فضيلة محذِّراً من كل رذيلة، فأحيا ما مات من قيم إنسانية، وأنقذ البشرية من براثن الجاهلية، والناظر في سيرته بعمق ورويَّة، يدرك أن المواقف والأحداث والأفعال والأقوال حوت أبعاداً إنسانية، وقيماً حضارية، جليلة القدر، عميقة النفع، ينبغي الوقوف عليها لسبر غورها والاقتداء بها، فإنسانيته صلى الله عليه وسلم ضاربة في تاريخه وسيرته قبل البعثة وبعدها، ومستفيضة الشهرة حال السلم وحال الحرب، والهدف المنشود من هذه الدراسة هو إظهار هذه الجوانب وبيان صورها ومظاهرها، وعرض الجانب العملي مضافاً إلى التأصيل النظري.

أسباب اختيار الموضوع:

هناك عدة أسباب دفعتني لكتابة هذا البحث يمكن بيانها فيما يلي:

١- الرغبة في دراسة السيرة النبوية والكشف عن جوانبها المضيئة.

٢- بيان أثر الجوانب الإنسانية المرتبطة بحياة خير البرية في هداية البشرية.

٣- بيان أن كل مواقف السيرة النبوية زاخرة بالأبعاد الإنسانية، وتسليط الضوء على سيادة المبادئ الإنسانية في حالتي السلم والحرب.

٤- إدراك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تربَّع قمة التسامي الإنساني وهو المثل الأعلى الحق للبشرية جمعاء.

٥- إدراك الدارس للسيرة النبوية التلازم والتطابق الذي لا ينفصم بين القول والعمل، والمبدأ والسلوك في شخصيته – صلى الله عليه وسلم.

منهج البحث:

اتبعت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي حيث قمت بتتبع وقائع السيرة النبوية لإبراز عمق البعد الإنساني في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتجلية أثره في الدعوة الإسلامية.

كما اتبعت المنهج التحليلي في تحليل النصوص والأحداث لاستنباط العبر والفوائد التي تؤكد ريادة السيرة النبوية في تقرير حقوق الإنسان، وتأصيل القيم الإنسانية.

خطة البحث:

"**البعد الإنساني في السيرة النبوية سلماً وحرباً دراسة تحليلية في ضوء الدعوة الإسلامية**"

وتشتمل على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة

المقدمة وتشتمل على أسباب اختيار الموضوع ومنهج البحث وخطة البحث.

التمهيد ويشتمل على : التعريف بمفردات عنوان البحث

المبحث الأول: البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال السلم

المطلب الأول: سيادة مبدأ المساواة في الإسلام

أولاً: النهي عن التميز العنصري **ثانياً:** النهي عن السخرية والتعيير

ثالثاً: إبطال مظاهر استعباد الناس **رابعاً:** سب الميت يؤذي الحي

المطلب الثاني: الشفقة على ذوي الحاجة وتمكينهم من المهام

المطلب الثالث: حسن العهد

أولاً: الثناء على السيدة خديجة رضي الله عنها وإكرام خلائلها

ثانياً: بره بأم أيمن الحبشية

المطلب الرابع: العفو عن غلاظ الأعراب

المطلب الخامس: ملاطفة الصبيان والرحمة بهم

المبحث الثاني: البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال الحرب

المطلب الأول: الوصية بالأسرى وحسن التعامل معهم

المطلب الثاني: الثقة في العدول من غير المسلمين

المطلب الثالث: تشريع أخلاق الحرب في الإسلام

أولاً: عدم التفريق بين الأم وولدها الصغير

ثانياً: الرحمة بالشيوخ والنساء والصبيان

ثالثاً: النهي عن الإفساد والتخريب

المطلب الرابع: البعد الإنساني في العلاقات مع المخالفين

أولاً: الوفاء بالعهود **ثانياً:** التثبت عند نقض الخصم للعهد

ثالثاً: حماية السفراء والرسل وإكرامهم **رابعاً:** صلة المخالف ومواساته

الخاتمة وتشتمل على النتائج والتوصيات ثم فهرس المصادر وفهرس الموضوعات.

تمهيد: التعريف بمفردات عنوان البحث

يتطلب البحث العلمي إماطة اللِّثام عن مفردات عنوان البحث ليتضح المراد من الدراسة، والمقصود من تناولها، ويمكن التعريف بالمفردات فيما يلي:

تعريف "البعد الإنساني:

يمكن تعريف البعد الإنساني بأنه: الجانب المضيء والاتجاه المشرق الذي يهدف إلى تَّمتُّع كل إنسان بالمزايا والحقوق والواجبات دون تمييز على أساس الجنس أو الجنسيّة أو الدِّين أو اللُّغة أو اللَّون(١).

تعريف "السيرة النبوية":

السيرة لغة: مصدر سار وتطلق على الطريقة، والسُنَّة، والسلوك، والحالة، والهيئة كما تطلق أيضاً على تاريخ حياة الإنسان وغيره(٢).

والسيرة النبوية اصطلاحًا: هي دراسة حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأخبار أصحابه على الجملة، وبيان أخلاقه وصفاته وخصائصه ودلائل نبوته، وأحوال عصره(٣).

تعريف الدعوة الإسلامية:

تعددت تعاريف الدعوة الإسلامية، فتارةً يقصد بها الإسلام نفسه، وتارةً يقصد بها تبليغه ونشره، والمراد بها هنا الأمران معاً فالبعد الإنساني في السيرة النبوية ذو أثر كبير في نشر الإسلام وتثبيت دعائمه في النفوس، كما أنه مستمد من تعاليم الإسلام السمحة ، وقد ورد تعريفها مرادفةً للإسلام بأنها "النظام العام

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة (١/ ١٣٠)، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ)، عالم الكتب، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٤٧).

(٣) صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر (١ / ١٢)، تأليف: نخبة من الأساتذة، مكتبة روائع المملكة – جدة، ط: الأولى، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

والقانون الشامل لأمور الحياة ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ من ربه، وأمره بتبليغها إلى الناس، وما يترتب على ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة"(١).

والدعوة بمعنى نشر الإسلام وتبليغه عُرِّفت بأنها "حركة إحياء للنظام الإلهي الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الخاتم، هذا النظام الإلهي قد اتخذ له مجرى في الحياة الإنسانية فكان له تاريخ يحفظ للدعوة منهاجًا، ودعاةً حملوها للناس بمنهاجها الفاضل وكان لها غايات حققت بها للبشر حياة ربانية"(٢).

وعلى هذا فالقصود بعنوان البحث دراسة الجوانب الإنسانية التي كشفت عنها حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه، فنقلتها من جانب التنظير إلى حيز التطبيق، وشملت حالتي السلم والحرب، وكان لها الأثر العظيم في إحياء الدعوة الإسلامية وتثبيت دعائمها.

(١) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها صـ٣٣، د. أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة ناشرون – ط: الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٨م.

(٢) الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها صـ٣، د. رؤوف شلبي، دار القلم، الكويت، ط الثالثة.

المبحث الأول: البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال السلم

عند النظر في السيرة النبوية نجد أنها تطبيق عملي لمختلف المبادئ الإنسانية، وتأصيل لها في سائر المواقف والأحداث، "فالمبدأ النظري يُرى ماثلًا قائمًا في شخص صاحبه، وهذا ما نجده في السيرة النبوية، حيث كان رسول – صلى الله عليه وسلم – يُجسِّد تعاليم الإسلام كما أرادها الله تعالى أن تُطبَّق في عالم الأحياء والبشر، وذلك في جميع أحواله وظروفه، نومًا ويقظة، سِلْمًا وحربًا، جِدًا ومداعبة، غَضَبًا ورضا، فردًا وجماعة، وتظهر شخصية النبي – صلى الله عليه وسلم – من خلال السيرة النبوية في الصورة المشرقة للإنسان الذي يمارس إنسانيته بكل أبعادها، ويتفاعل مع الواقع بكل معطياته. وندرك أن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – الإنسان –بكل نوازع الإنسان– قد تربَّع قمة التسامي الإنساني وهو المثل الأعلى الحق للبشرية جميعًا. كما يدرك الدارس للسيرة النبوية التلازم والتطابق الذي لا ينفصم بين القول والعمل، والمبدأ والسلوك في شخصيته – صلى الله عليه وسلم –، فلا يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، بل هو أول ملتزم ومطبق للأمر ولو كان وحده، ولقد اهتدى بهذه السيرة الكريمة العطرة واستدل بها على صدق نبوته ورسالته عدد غير قليل في حياته وبعد وفاته – صلى الله عليه وسلم – من العظماء والكبراء، وآحاد الناس وعامتهم"(١).

والمواقف الإنسانية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من تحصى، وأعظم من أن تُعدّ، تراها جليةً في شتى الظروف والأحوال، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والسلم والحرب، والغنى والفقر، والصحة والمرض ويمكن بيان الأبعاد الإنسانية حال السلم من خلال ما يلي:

(١) صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر (١ / ١٨).

المطلب الأول: سيادة مبدأ المساواة في الإسلام

من أراد الوقوف على النموذج العملي للعدل والمساواة فعليه بسيرة خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم، فالعدالة بكافة صورها ومختلف مظاهرها متجسدة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويمكن بيانها من خلال ما يلي:

أولاً: النهي عن التميز العنصري

رسَّخ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ المساواة بين جميع الناس، وذلك باعتبار وحدة الجنس ووحدة الأصل، فالبشر جميعاً سواء وكلهم من تراب، وأسقط صلى الله عليه وسلم مظاهر التعالي والتفاخر باللون أو بالمال أو بالحسب، فضرب بعادات الجاهلية عُرض الحائط، وأزال ما خيَّم على العقول عدد سنين، من فكر معوَّج واعتقاد باطل، فأعلن أن لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، والسيرة النبوية حافلة بتأصيل هذا المبدأ الإنساني العظيم، ففي مكة ازدرى الملأ من المشركين أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفقراء والعبيد والمستضعفين فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: " مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنده خباب، وصهيب، وبلال، وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} إلى قوله سبحانه {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ }[1]" [2].

كما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم طرد الضعفاء من أصحابه "فقالوا: يَا مُحَمَّدُ، اطْرُدْهُمْ، أَرَضِيتَ هَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمَكَ، أَفَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لِهَؤُلَاءِ

(١) سورة الأنعام: الآيات ٥١-٥٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن مسعود (٩٢/٧) ح (٣٩٨٥)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا، فَلَعَلَّ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَنْ تَأْتِيَكَ"[١].

رأى العتاة من المشركين بنظرهم القاصر وحكمهم الجائر أن لهم مزية وفضلاً على المؤمنين، وهذا لأنهم رُزقوا من المال ما لم يرزق المستضعفون، وجهلوا أن المال ليس محلاً للتفاضل بين الناس، لأن الرزق بيد الله يجعله كيف يشاء قال تعالى : {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٢]، واعتقدوا الامتياز بحسبهم ونسبهم وهذا لفرط جهلهم، فالحسب ليس محلاً للتفاضل أيضاً؛ لأن الإنسان ليس له شأن في اختيار أبيه وأمه وإخوته وفصيلته، بل إن محل التفاضل إنما يكون من كسب الإنسان وجده وتحصيله وعمله، فمقياس التفاضل عند الله بالتقوى، وكل إنسان له أن يكتسبها، إن سلك دروبها، وحصَّل أسبابها.

وما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيب المشركين فيما طلبوه فهو الحريص على صحبة الضعفاء من المؤمنين كثير التوصية بهم فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم"[٣].

وأنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعدهم وهو الذي سأل ربه أن يُحشر في زمرة المساكين فعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة» فقالت عائشة: لمَ يا رسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا، يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي

(١) أخرجه البزار في مسنده، مسند عبد الله بن مسعود (٤٠٩/٥) ح (٢٠٤١)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (من ١٩٨٨م إلى ٢٠٠٩م).

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الانتصار برُذُل الخيل والضعفة (٢٣٦/٤) ح (٢٤٩٤)، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

المساكين وقرِّبيهم فإن الله يقربك يوم القيامة»[١].

أوضح النبي صلى الله عليه وسلم أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياءهم إلى الجنة بأربعين سنة، فظهر بهذا أن الفقر مع لزوم الصبر وبذل أقصى ما في الوسع فضيلة ترفع قدر صاحبها عند الله وترقيه.

وجاءت حجة الوداع لتقرر مبدأ المساواة أمام الجمع الغفير، ليعلم الشاهد منهم الغائب، ويَقضي على صور التعالي الممقوت والتفاخر المذموم، فقام خطيباً قائلاً: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى[٢].

ثانياً: النهي عن السخرية والتعيير

نهى القرآن أتباعه عن السخرية والاحتقار فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ }[٣]، فالإنسان كرَّمه الله تعالى، وخلقه في أحسن تقويم وميَّزه بالإدراك عن سائر الكائنات، وسخَّر له ما في الأرض والسماوات، ومن لوازم التكريم صونه عن السخرية والتعيير، فمن الجهالة أن يُعيَّر الإنسان بأصله وحسبه وطبقته وعرقه، ونجد في السيرة النبوية الشواهد العديدة التي تبطل صور الاحتقار والازدراء، فمن ذلك ما جاء عن المعرور بن سويد، قال: مررنا بأبي ذر بالربذة

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٥٧٧/٤) ح (٢٣٥٢)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر – ومحمد فؤاد عبد الباقي – وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط: الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، باب حديث رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٤٧٤/٣٨) ح (٢٣٤٨٩)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

(٣) سورة الحجرات: من الآية ١١.

وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية» ، قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: «يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

يتجلى في هذا الموقف البعد الإنساني الذي ربَّى عليه النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، فكلما نزع أحدهم إلى عادات الجاهلية، ردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رشده وكفَّه عن فعله، وأزال ما بقي عالقاً في النفوس من صور السخرية والتعيير، بل إن التعيير رذيلة في كل حال، لا يُقبل وإن كان من السيد لعبده وخادمه، لأنهم إخوة في الآدمية فضلاً عن أخوة الإسلام، وقد سخر الله تعالى العبيد والخدم وجعلهم قائمين بالمصالح العميمة، فلزم الاعتراف بهذه النعمة وحفظها، إذ تقدير النعمة علامة على شكرها، وسبيل لإرضاء المنعم بها.

كما كان هذا الموقف باعثاً لإرساء مبادئ التعامل مع العبيد والخدم، فهم إخوان لأسيادهم يطعمون مما يطعم أسيادهم ويلبسون مما يلبس، ولا يكلفون بما فوق طاقتهم، وهذا ما أخذ به أبو ذر رضي الله عنه بعد هذه الموعظة النبوية

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (١/١٥) ح (٣٠)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ، وأخرجه مسلم، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس (٣/١٢٨٢) ح(١٦٦١)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت [(الربذة) هو موضع بالبادية في شمال المدينة سكنه أبو ذر رضي الله عنه وبه كانت وفاته (لو جمعت بينهما كانت حلة) إنما قال ذلك لأن الحلة عند العرب ثوبان ولا تطلق على ثوب واحد (إنك امرؤ فيك جاهلية) أي هذا التعبير من أخلاق الجاهلية ففيك خلق من أخلاقهم].

الجليلة، فقد أشرك خادمه في ملبسه واقتسم الحلة ذات الجزءين معه مبالغة في تكريمه وإذابة للفوارق المادية والمعنوية.

واتضح من هذا الموقف أن التعيير بالآباء والأمهات من أخلاق الجاهلية المرذولة وأعمالها الممقوتة، ففي رواية أنه قال له يا ابن السوداء، ومعلوم أن التفاضل ليس باللون والصورة بل بالتقوى والعمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)]، وكان هذا العمل من أبي ذر قبل أن يعلم حرمة التعيير، فلما أدرك أبو ذر فداحة كلمته ندم على ما قال، وأراد أن يكفر عن فعلته فألصق خده بالتراب، وحلف ألا يقوم حتى يطأ بلال رضي الله عنه خده، حيث عيَّره بأمه[(٢)].

كما اشتمل هذا التوجيه على تحذير استعباد الناس، فكونهم خدما لا ينافي أنهم إخوان لكبرائهم وأسيادهم، فالله تعالى رفع بعض الناس على بعض ليؤدي كلٌ دوره في الحياة، ويتم التكامل بين الجميع، فتتحقق المصالح وتتكامل المنافع، والأعمال المنوطة بالناس على اختلافها محترمة، فلا يُحتقر أحد لوظيفته واختصاصه فصلاح الدنيا مرتبط بتحقق المصالح كلها، ولا بد أن يسود الاحترام والتقدير بين الجميع.

ثالثاً: إبطال مظاهر استعباد الناس:

من البدهي أن العبودية لله وحده، لا تكون لأحد سواه، فلا يجوز صرف صورة من صور العبادة لغير الله فالنبي صلى الله عليه وسلم قضى على مظاهر الاستعباد التي سادت الجاهلية، فالحكَّام الطغاة استعبدوا شعوبهم واعتبروا أنفسهم أرباباً لهم، ومن وجوه هذا الاستعباد أنهم أحلُّوا لهم وحرَّموا عليهم فجاء الإسلام

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (١٩٨٧/٣) ح (٢٥٦٤).
(٢) المنهل الحديث في شرح الحديث (٢٩/١)، د. موسى شاهين لاشين، دار المدار الإسلامي، ط: الأولى، ٢٠٠٢ م.

فأزال ما سطر على عقول الناس واستحوذ على قلوبهم فعن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعته يقرأ في سورة براءة: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله}(١)، قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه»(٢).

جاء الإسلام فرأى الاستخفاف بعقول الناس، من قبل الرؤساء والزعماء قد بلغ أَوْجَه، فبعضهم ادَّعى الألوهية بل والربوبية، فاختلقوا أدياناً وشرَّعوا للناس تحليلاً وتحريماً، فأبطل الإسلام استقلالية البشر بالتحليل والتحريم، فالعقل الإنساني مهما ارتقى قاصر عن إدراك وجه الحكمة لكثير من التشريعات، فضلاً عن أن يستقل بالتشريع، فالعقل يتلقى عن الشرع ويفقه عنه، فيعصم من الخطأ والزلل إذا سار في رحاب الوحي والنبوة، فالأحبار والرهبان خالفوا التنزيل ورغبوا عن الوحي وعدلوا عن التشريع الحكيم فضلوا وأضلوا، وصوروا لأتباعهم أنهم أهل عصمة ولهم الحق في التحليل والتحريم، فتنكَّبوا الصراط ، فكانت بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنقاذاً للبشرية من التلاعب بالأديان، وتضليل الشعوب.

ومن وجوه الاستعباد التي شاعت بين الشعوب والأمم ورفضها الإسلام إحداث الفرق الكبير والفجوة الواسعة بين الحكام والمحكومين، كأن الملوك من جنس والشعوب من جنس آخر، ويتضح هذا من خلال موقف المغيرة بن شعبة

(١) سورة التوبة: من الآية ٣١.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٢٧٨/٥) ح (٣٠٩٥)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. قال المحقق (أيمن صالح شعبان): لكن في الباب عن حذيفة موقوفاً أخرجه الطبري رقم (١٦٦٣٤) وبما يتقوى به. ينظر: جامع الأصول (٢ / ١٦٢)، دار الكتب العلمية، الأولى ١٣٨٩-١٣٩١هـ.

أمام رستم وجنوده، فعندما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم قائد الفرس، وهو في أبهته وسلطانه، جلس معه- على عادة العرب- على سريره ووسادته، فوثبوا عليه، وأنزلوه ومغثوه (الضرب الخفيف)، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوما أسفه منكم، إنّا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا، إلا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأنّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني»[1].

فأنكر الصحابي الجليل سياسة الاستبداد والاستعباد التي سادت بين الأمم، وثار على الطبقية التي أرَّقت الشعوب، وسلبت حرياتهم، وتعجَّب من تعالي ملوكهم وغطرسة قادتهم واستئثار ذوي الحظوة منهم، وكان يظن أنهم قائمون على القيم الإنسانية والفضائل الأخلاقية، فرآهم بمنأى عنها، فأبرز الفرق الواضح بينهم وبين المسلمين الذين تسود بينهم الأخوة والمواساة ويعم التكافل والتعاون المجتمع بأسره.

فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق كان كأحد أصحابه، لا يمتاز عنهم بمجلس ولا لباس ولا طعام ولا شراب، بل كان يؤثرهم على نفسه، وهذا ما أخذه صحابته عنه، فهذا أبو بكر رضي الله عنه "لما استُخلف، غدا إلى السوق وعلى عاتقه أثواب يبيع ويشتري، فاجتمع أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم وقالوا: هذا خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم أصبح غاديا يبايع الناس في الأسواق، وله بشأن المسلمين شغل، ولن يبلغ أحدا خبره من سادات العرب وملوك العجم إلا احتقروا أمركم، فأتوه وكلموه في ذلك، وقالوا له قولا غليظا شديدا، فقال: إنما أنا كاسب أهلي، فإن أنا أضعتهم فأنا لمن وراءهم أضيع، وقد كرهت أمركم

(١) تاريخ الرسل والملوك (٥٢٢/٣)، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار التراث – بيروت، ط: الثانية – ١٣٨٧هـ.

وحرصت أن أكون وزيرا فأبيتم إلا بيعتي وأكرهتموني"(١).

فهذا أبو بكر تولى الخلافة وخرج في الصباح يتَّجر بالسوق فرده الصحابة وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه، على أن يتقاضى راتباً نظير تفرغه لمصالح المسلمين، فقبل على ألا تزيد نفقته عن أفقر بيت من بيوت المسلمين، فأي فرق بين الراعي والرعية في شريعة الإسلام؟.

وكذا فعل عمر رضي الله عنه فقد أخذ نفسه وأهله بالجِد والحزم، فحاسبهم أشد حساب، ولم يؤثرهم بشيء دون الرعية، بل ورفض إكرام الرعية لهم لمكان أبيهم أمير المؤمنين فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: "اشتريت إبلاً وارتجعتُها إلى الحِمى، فلما سمنت قدمت بها، قال: فدخل عمر رضي الله عنه السوق فرأى إبلاً سماناً، فقال: لمن هذه الإبل؟، فقيل: "لعبد الله بن عمر"، فجعل يقول: "يا عبدَ الله بن عمر! بخٍ بخٍ، ابنُ أمير المؤمنين"، قال: "فجئته أسعى، فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟"، قال: ما هذه الإبل؟، قلت: "إبل اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون"، قال: "يقال: ارْعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر، اغد على رأس مالك واجعل باقيه في بيت مال المسلمين"(٢).

وباتباع عمر رضي الله عنه هذه السياسة الحكيمة صار أهله وعشيرته قدوة للناس، ومثلاً يحتذى لمن رام صلاح البلاد والعباد، لأنه لم يمنحهم امتيازات تفضل سائر الرعية، ولم يطلق أيديهم في أموال المسلمين، بل ضيَّق عليهم وأخذهم بالورع، واعتبرهم قائمين على مصالح الناس أمناء على أموالهم، وهذا جانب إنساني مثَّل المساواة في أرقى صورها.

---

(١) تثبيت دلائل النبوة (٢ / ٥٦١)، لأبي الحسين القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي (ت: ٤١٥هـ)، الناشر: دار المصطفى – شبرا– القاهرة.

(٢) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (٢ / ٦٠٦)، لجمال الدين يوسف بن حسن ابن المبرد الحنبلي (ت: ٩٠٩هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

رابعاً: سبُّ الميِّت يؤذي الحي

إن المسلم الحق يراعي شعور غيره، يفرح لفرحه ويتألم بألمه، لا يعرف الشماتة، ولا السباب، وإن سابه غيره كظم غيظه، وقابل الإساءة بالإحسان، ومخالفة الاعتقاد لا تبرر السب والشتم واللمز والهمز، بل يكون المسلم على أتم خلق وأرقى حال في تعامله مع غيره، وإذا اشتط بعض المخالفين في عداوتهم للإسلام، واستحقوا اللعن من الله ورسوله، فإن هذا اللعن تراعى فيه المقاصد، ويوازن فيه بين المصالح والمفاسد، فربما كان اللعن سبباً في تأزم العلاقات بين المسلمين، وتنافر القلوب وتقاطع الأواصر، وذلك لوجود بعض المسلمين الذين يؤذيهم هذا اللعن لقرابتهم ممن استحق اللعن، فعندئذ يكون من الحكمة الكف عن اللعن جبراً لخاطرهم، واحتراماً لشعورهم، وشفقة عليهم، إذ يذكرون قبيح فعل أقاربهم، وربما عُيِّروا بذلك، لهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب الميت فعن عبد الله بن الزبير قال: لما كان يوم فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عاقلة أسلمت، ثم سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمان لزوجها فأمرها برده، فخرجت في طلبه وقالت له: جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس وقد استأمنت لك فأمنك، فرجع معها، فلما دنا من مكة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنا مهاجرا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت» ، فلما بلغ باب رسول الله صلى الله عليه وسلم استبشر ووثب له رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما على رجليه فرحا بقدومه(١).

فكان النهي عن سب أبي جهل مع شدة عداوته للإسلام، وكثرة إيذائه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب عكرمة بن أبي جهل (٢٦٩/٣) ح (٥٠٥٥)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

للمسلمين، وتعذيب المستضعفين وقتل بعضهم، فهو قاتل السيدة سميه أم عمار بن ياسر شر قتلة حيث طعنها بخنجر في سوأتها، ولم يألُ جهداً في الصد عن سبيل الله، ومناهضة الدعوة الإسلامية حتى لُقِّب بفرعون الأمة، ولكن منَّ الله على ابنه عكرمة بالإسلام، وأصبح أخاً للمؤمنين، فكان ذكر أبيه بالسوء يؤذيه، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سبه تأليفاً لقلب عكرمة، وتقديراً لشعوره، وهذا جانب إنساني رفيع، فالتبرؤ من المشركين لا يكون بالسب واللعن بل تُصان الكرامات وتُحفظ الأعراض.

المطلب الثاني: الشفقة على ذوي الحاجة وتمكينهم من المهام

ومن الجوانب الإنسانية في السيرة النوية شفقته صلى الله عليه وسلم على الضعفاء والمساكين وذوي الحاجة، ومراعاة معنوياتهم، واحترام شعورهم، فكان صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس ويريد أن يطيل الصلاة فيسمع بكاء الصبي فيتجوز في الصلاة شفقة ورحمة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة، ولا أتم من النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان ليسمع بكاء الصبي، فيخفف مخافة أن تفتن أمه»[(١)]، فمع شغف النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة ومحبته لطولها، إلا أنه آثر الرفق بالصبيان على طول الصلاة دفعاً للضرر الأشد، وتخفيفاً على الأمة، وتيسيراً على الأمهات فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

وربى صلى الله عليه وسلم أتباعه على هذا الجانب الإنساني الرفيع فعن أبي مسعود الأنصاري، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان، مما يطيل بنا فما رأيت النبي صلى

(١) أخرجه البخاري، كتاب صلاة الجماعة وة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (١٤٣/١) ح (٧٠٨) ومعنى (تفتن أمه): تلتهي عن صلاتها فلا تخشع فيها لاشتغال قلبها ببكائه.

الله عليه وسلم غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ فقال: «يا أيها الناس إن منكم منفرين، فأيكم أمَّ الناس، فليوجز فإن من ورائه الكبير، والضعيف وذا الحاجة»[1]، وهذا ليعلم الناس أن ليس القصد من الصلاة حصول المشقة، والتطويل فوق الطاقة، بل التخفيف بالناس مع التمام ترغيباً للناس في حضور الجماعة، وتيسيراً على المرضى وذوي الحاجات الخاصة.

كما أننا نجد في السيرة النبوية سبقاً لكثير من المنظمات الحديثة التي أقرت حقوق الزمنى والضعفاء وذوي الحاجات، فترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في حمل الكل وكسب المعدم وعون الأخرق كفل حقوق هؤلاء وجعلهم أعزاء في مجتمعهم، لم يخالجهم الشعور بالضعف، ومن شواهد ذلك ما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «على كل مسلم صدقة» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيأمر بالخير» أو قال: «بالمعروف» قال: فإن لم يفعل؟ قال: «فيمسك عن الشر فإنه له صدقة»[2].

كما غمرهم المجتمع الإسلامي برحمته وإحسانه، وأولاهم المهمات، وخولهم المسئوليات، فها هو ابن أم مكتوم مع أنه كان أعمى إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلي من قدره، فيستخلفه على المدينة، ويكلفه بالأذان وبإمامة الناس في

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان (٦٥/٩) ح (٧١٥٩)، وأخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٣٤٠/١) ح (٤٦٦).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة (١١/٨) ح (٦٠٢٢)، وأخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل (٦٩٩/٢) ح (١٠٠٨)، (ذا الحاجة) صاحب الحاجة. (الملهوف) المظلوم المستغيث والمكروب المستعين.

غيابه فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين يصلي بهم وهو أعمى"(١)، فتولية مثل ابن أم مكتوم وهو من أهل الأعذار إذابة للفوارق الاجتماعية بين ذوي الحاجة وغيرهم، واعتراف بمكانتهم داخل المجتمع، ليكونوا عناصر صالحة فعالة، ساعين في نشر الفضيلة وتحقيق التقدم والازدهار.

وهذا عمرو بن الجموح مع عرجه إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحرمه من الخروج للغزو والظفر بالشهادة رغبة منه في أن ينال الشهادة مع كونه "شديد العرج، وله أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه إلى أُحُد، قال له بنوه: إن الله عز وجل قد جعل لك رخصة فلو قعدت فنحن نكفيك فقد وضع الله عنك الجهاد. فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن بني هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد"، وقال لبنيه: "وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة ". فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقُتل يوم أحد شهيدا"(٢).

ومن المواقف الإنسانية التي كشفت عن الرحمة التي غمرت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ما رأى من ظلف العيش وصور الفقر التي لحقت ببعض الوافدين عليه، فرقَّ لحالهم، وتغيَّر وجهه، وساءه ما عاينه من شدة فاقتهم، وعظم حاجتهم، وانطلاقاً من هذا الجانب الإنساني حث على الإنفاق ورغَّب فيه، عسى

(١) أخرجه أحمد، مسند أنس بن مالك (٣٠٧/٢٠) ح (١٢٩٩٩)، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.
(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب من اعتذر بالضعف والمرض والزمانة (٤٢/٩) ح (١٧٨٢١)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

أن يتبدل بهم الحال، ويحصل لهم الكفاف، فعن المنذر بن جرير، عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر فتمعَّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[1] والآية التي في الحشر: {اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله}[2] «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره – حتى قال – ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل، كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[3].

معلوم أن التكافل جانب إنساني رفيع شيَّد الإسلام أركانه، وأرسى قواعده، فظهرت نتائجه وعمت آثاره واستفاضت منافعه، فما اطمأنَّ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا استنار وجهه إلا بعد تنافس الصحابة في سد حاجة هؤلاء،

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

(٢) سورة الحشر: من الآية ١٨.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (٧٠٤/٢) ح (١٠١٧) [(مجتابي النمار) جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض، خرقوا أوساطها ليلبسوها (فتعمر) أي تغير (كومين) الكوم: العظيم من كل شيء (يتهلل) أي يستنير فرحا وسرورا].

فأظهر رضاه بما صنعوا، وبشرهم بمزيد أجر السابقين منهم، حيث إن له أجره وأجر من تبعه إلى يوم القيامة.

المطلب الثالث: حسن العهد

شأن المؤمن أن يعترف بالفضل لأهله، ويرد الجميل، ويكافئ على المعروف، ويجزي بالإحسان إحساناً، وهذا ما أكدته السيرة النبوية وحرصت على تشريعه وتأصيله، ويتضح هذا من خلال ما يلي:

أولاً: الثناء على السيدة خديجة رضي الله عنها وإكرام خلائلها

لا يخفى على أحد ما كان للسيدة خديجة رضي الله عنها من سبق في الإسلام، وتضحية لتبليغ رسالة الإسلام بكل ما ملكت من مال ونفوذ وجهد، فكانت نعم العون للنبي صلى الله عليه وسلم، لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم دائم الذكر لها مخلداً لمآثرها كثير الثناء عليها فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: «ما غرت على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم، ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن»(١).

فكثرة ذكرها اعتراف بالجميل وإقرار بالفضل، وإعلان لما حازته من منزلة عظيمة لا ترقى إليها غيرها من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا مبدأ إنساني رفيع ينبغي الاتصاف به، لما فيه من حسن العشرة، وشيم المروءة، وكرم الطبع.

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨/٥) ح (٣٨١٦)، وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (١٨٨٨/٤) ح (٢٤٣٥).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فضائلها ويبيِّن العلة لكثرة ثنائه عليها فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها، فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوما، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرا منها، قال: "ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء"(١).

عدَّد صلى الله عليه وسلم جملة الفضائل التي امتازت بها السيدة خديجة رضي الله عنها دون من سواها، وفي مقدمتها سبقها للإسلام فكانت أول من آمن بالرسول، وشدَّت عضده، وآزرته وصدقته، وأنفقت مالها في سبيل الدعوة إلى الله، ومواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحباها الله بالولد دون من عداها من نسائه، فمنها كانت ذريته، وهذا الثناء كان منه بعد وفاتها، ومعلوم أن الثناء على الغائب أوقع إذ هو أكمل براً، وفي حق الموتى أتم تجرداً وأصدق أثراً، وأبعث للحي على العمل والجِد ليحظى بالثناء والبر.

وكان بره لها مستمراً حال حياتها، وبعد وفاتها فكان يغدق العطاء في خلائل خديجة رضي الله عنها إكراماً لها وبراً بها، ويحسن استقبالهن فعن عائشة، قالت: جاءت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو عندي، فقال: لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أنت؟» قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: «بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»(٢)،

(١) أخرجه أحمد، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما (٣٥٦/٤١) ح (٢٤٨٦٤) وقال وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، حديث معمر (٦٢/١) ح (٤٠) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي: على شرطهما وليست له علة.

وهذا جانب إنساني راقٍ أرست دعائمه السيرة النبوية من مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله.

ثانياً: بره بأم أيمن الحبشية

ورث النبي صلى الله عليه وسلم عن أبيه جارية حبشية تدعى بركة وتكنَّى بأم أيمن، كانت حاضنته في صغره، وهي ممن أرضعته، قامت بخدمته وأحسنت إليه وأسدت له خيرا كثيراً، فكان جزاء هذا الإحسان أن يقابل من الرسول الكريم بمزيد من البر والإحسان، وقد تمثل هذا البر وحسن العهد بها في أمور:

١- أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما كبر أعتقها وزوجها من مولاه زيد بن حارثة فهي أم أسامة بن زيد وذلك كان قبل البعثة، قال ابن شهاب: وكان من شأن أم أيمن أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما توفي أبوه، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعد ما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر"(١).

وما فعله صلى الله عليه وسلم مع أم أيمن مولاته بُعد إنساني راقٍ يدعو كل إنسان إلى رد الجميل ودوام العرفان والشكر.

٢- إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لها، وتقديمها لمكانتها عنده، وحرصه على تحقيق كفايتها من المطعم والمشرب، فعن أنس رضي الله عنه، قال: كان الرجل يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات، حتى افتتح قريظة والنضير، وإن أهلي أمروني أن آتي النبي صلى الله عليه وسلم، فأسأله الذي كانوا أعطوه أو

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم (١٣٩١/٣) ح (١٧٧١).

بعضه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي، تقول: كلا والذي لا إله إلا هو لا يعطيكهم وقد أعطانيها، أو كما قالت: والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لك كذا» وتقول: كلا والله، حتى أعطاها – حسبت أنه قال – عشرة أمثاله، أو كما قال(١).

أعطت أم سليم النخلات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فآثر بها أم أيمن فكانت عندها إلى أن كانت الغنائم ووسع الله على المسلمين، فرُدَّت العطايا لأهلها، وعوَّض النبي صلى الله عليه وسلم أم أيمن بعشرة أمثال ما أُخذ منها، فهذا غاية البر ومنتهى الجود والكرم.

٣- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على زيارتها، دائم التفقد لحالها، قاضياً لحاجاتها، وكان يحلم عليها إذا رفعت صوتها أو تذمرت لما لها من يد، فعن أنس، قال: «انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى أمِّ أيمن، فانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب» قال: فلا أدري أصادفته صائما أو لم يرده، فجعلت تصخب عليه وتذمر عليه"(٢).

وبر النبي صلى الله عليه وسلم إياها جعل لها المنزلة الرفيعة في قلوب أصحابه وحرصوا على زيارتها، فذهب الشيخان أبو بكر وعمر لزيارتها بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتداءً به وإكراماً لها، وكانت ذات رأي وعقل، فعن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (١١٢/٥) ح (٤١٢٠)، وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم (١٣٩١/٣) ح (١٧٧١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن (١٩٠٧/٤) ح (٢٤٥٣)، [(تصخب) أي تصيح وترفع صوتها (وتذمر عليه) أي تتذمر وتتكلم بالغضب ومعنى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رد الشراب عليها إما لصيام وإما لغيره فغضبت وتكلمت بالإنكار والغضب وكانت تدل عليه صلى الله عليه وسلم لكونها حضنته وربته]

أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: "انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء. فجعلا يبكيان معها"(١).

المطلب الرابع: العفو عن غلاظ الأعراب

الاستيعاب بُعد إنساني رفيع في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد وسع الناس جميعاً بخلقه، فكان يأتيه الرجل من أهل البادية جافياً غليظاً، لا عهد له بصحبة الناس ومعاملتهم، جاهلاً بمقام النبوة، فيجهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤذيه بلسانه وربما بيده، فيحلم عليه ويحسن إليه، ومواقفه هذه بلغت حداً في الكثرة أسوق بعضها لبيان الجوانب الإنسانية منها:

١- **عفوه عن الأعرابي الذي بال في المسجد:** عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء، أو ذَنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»(٢).

فالأعراب مغرقون في البداوة، لا عهد بالمساجد وأحكامها، ولا بالنجاسات ووجوب التنزه عنها، فلا يستترون من البول ونحوه، حَسِب المسجد كخيمة أو

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن (١٩٠٧/٤) ح (٢٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (٥٤/١) ح (٢٢٠) [الأعرابي هو الأقرع بن حابس وقيل غيره والأعرابي هو من نزل من البادية من العرب (هريقوا) صبوا (سجلا) الدلو الممتلئة ماء (ذنوبا) الدلو الكبير الممتلئ ماء (لم تبعثوا معسرين) من شأنكم عدم التعسير لما جاء به شرعكم من اليسر ورفع الحرج والتضييق].

ناحية في الصحراء، فقام وبال به، لا يفرق بين مكان العبادة وغيره، فمثل هؤلاء في أمس الحاجة إلى التعليم والبيان وذلك في رحمة ويسر، وهذا ما كان من الرسول الإنسان الذى استوعب الأفراد والجماعات، العلماء والأميين، الحضر والبدو بما آتاه الله من حلم ورحمة، وبصيرة وحكمة.

٢- **عفوه عن الأعرابي الذي جبذه بشدة وإحسانه إليه:** بلغ أذى الأعراب أن تطاولوا بأيديهم، وألسنتهم على مقام النبوة، وهذا للجفوة التي فيهم والجهل بمقام النبوة، وضيق أفقهم في فهم الأمور ومعالجتها، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عن كل إساءة وتعامل بالحسنى، مما جعلهم يحبونه، ويختارون الإسلام عن حب ورغبة فعن أنس بن مالك، قال: "كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء، من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمر له بعطاء"(١).

وهكذا تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع الأعراب بإنسانية لا مثيل لها فكظم غيظه، وعفا عنهم، وأحسن إليهم، وأراد بعضهم في غزاة أن يقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فمكَّن الله نبيه منه، فخلَّى سبيله على ألا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فأتى أصحابه مخبراً عن خلقه قائلاً: قد جئتكم من عند خير الناس(٢).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب البرود والحبرة والشملة (١٤٦/٧) ح (٥٨٠٩)، وأخرجه مسلم، كتاب باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (٧٣٠/٢) ح (١٠٥٧)، (نجراني) منسوب إلى نجران موضع بين الحجاز واليمن (فجبذه) جبذ وجذب لغتان مشهورتان.

(٢) أخرجه أحمد، مسند جابر بن عبد الله (١٩٣/٢٣) ح (١٤٩٢٩)، وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح.

المطلب الخامس: ملاطفة الصبيان والرحمة بهم

مع عظم مسؤوليات رسول الله صلى الله عليه وسلم، واهتمامه بإصلاح أمور الناس الدينية والدنيوية، وكثرة شواغله إلا أنه كان ممثلاً لكل شعور إنساني قائماً بكل خلق نبيل، يراعي حق الصغير والكبير، فلاطف الصغير وداعبه، وأدخل السرور عليه وآنسه، وتودَّد إليه وألَّفه، وسلَّم عليه وقرَّبه، وشواهد ذلك كثيرة متنوعة منها:

١ - إطالة النبي صلى الله عليه وسلم السجود لارتحال حفيده له: فعن عبد الله بن شداد، عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه، ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ساجد فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، قال: «كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»(١).

فهذا جانب إنساني حققه نبي الرحمة، فالطفل لا يعلم أحكام الصلاة، ويريد أن يظفر بالارتحال في مثل هذا الحال، فلم يرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه من سجوده وأطال فيه، منتظراً أن يأخذ الطفل نهمته، ويقضي حاجته من اللعب والمرح، وهذه رسالة لكل أب أن يحنو على أولاده وأحفاده، ويمرح معهم بين الحين والآخر، وأن يحلم عليهم في التربية والتوجيه، ففي أعظم حال وهو المقام بين يدي الله في الصلاة، ترك النبي صلى الله عليه وسلم حفيده لعلمه أن في عمله رضا

(١) أخرجه النسائي، كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة (٢/٢٢٩) ح (١١٤١).

المولى سبحانه.

٢ - **مخالطة الصبيان والصلاة بهم واحترام اهتماماتهم :** فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير»(١)، وفي رواية أخرى قال أنس: فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا(٢).

أخبر أنس بن مالك رضي الله عنه عن تواضع النبي صلى الله عليه وسلم للصبيان وهو من خدمه عشر سنين، فكان يجلس إليهم ويخالطهم ويداعبهم، ويدللهم بأحسن الأسماء، ويناديهم بأحب الكنى والألقاب، فكنَّى أخا أنس بأبي عمير، وهو لم يزل صغير، واهتم بما أحبَّ.

فهؤلاء الصبيان أصبحوا بعد حين رجال الأمة وعلماءها، وقادتها وخلفاءها، وكان حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على القرب منهم ليقتدوا به في تعظيم أوامر الله، فإذا حضرت الصلاة، أمر بتطهير الأرض والبساط ثم قام ليؤمهم في الصلاة، فمن يقدر أن يوازن بين هذه النواحي الإنسانية الراقية؟ وبين ما يحيط به من تربص المشركين بالخارج، والمنافقين واليهود بالداخل، وتعدد الجبهات؟، والقيام بالدعوة والبلاغ والتبشير والإنذار بالليل والنهار؟ ليس إلا أولو العزم من الرسل، وخاتمهم النبي الأعظم والرسول الأكرم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الانبساط للناس (٣٠/٨) ح (٦١٢٩) [المعنى (ليخالطنا) يلاطفنا بطلاقة الوجه والمزح. (لأخ لي) هو أخوه من أمه أم سليم ابن أبي طلحة رضي الله عن الجميع. (النغير) مصغر نغر وهو طير كالعصفور محمر المنقار يسميه أهل المدينة البلبل].

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل (٤٥/٨) ح (٦٢٠٣)، وأخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته (١٦٩٢/٣) ح (٢١٥٠).

المبحث الثاني: البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال الحرب

اتضح مما سبق البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال السلم، ولم يقتصر الأمر على حال السلم بل شمل السلم والحرب، فمواقفه الإنسانية مع المخالفين بلغت حداً في الكثرة فتجلَّت الجوانب الإنسانية لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتعددت مظاهرها، ويمكن بيان نماذج منها فيما يلي:

المطلب الأول: الوصية بالأسرى وحسن التعامل معهم

علَّم الإسلام أتباعه احترام المخالف، واجتناب إهانته، فالمخالف وإن كان محارباً وقع في يد المسلمين أسيراً فإن الإسلام نهى عن إيذائه وإيجاعه وإرهاقه وأمر بالإحسان إليه وإطعامه قال الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا }[1] قال القرطبي: وأسيرا أي الذي يُؤسَر فيحبس، وعن ابن عباس قال: الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم، قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه[2].

فإطعام الأسير هنا يشمل إكرامه وحسن معاملته، ليعاين الأخلاق الإسلامية ويدرك سماحة الإسلام وكرم المسلمين، وهذا ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام، "فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل بالأسارى فرقهم بين أصحابه، وقال "استوصوا بهم خيرا"، وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير في الأسارى، قال أبو عزيز فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٢) تفسير القرطبي (١٩ / ١٢٩)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط: الثانية ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م

بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبزة إلا نفحني بها فأستحي فأردها فيردها علي ما يمسها"[١].

وقد أثمر هذا الجانب الإنساني، وآتى أكله في النفوس، فأسلم كثير من هؤلاء الأسرى منهم أبو عزيز الذي شهد بكرم خلق الصحابة، وإيثارهم الأسرى على أنفسهم، مع شدة الحاجة، وعدم حصول الكفاية، كما أسلم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وسهيل بن عمرو وأبو العاص زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم.

وكان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم رئيساً في قريش خرج مع المشركين يوم بدر فأُسر وشُدَّ وثاقُه، فسهر النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ولم يَنَم، فقال له بعض أصحابه: ما يسهرك يا نبي الله؟ فقال: أسهر لأنين العباس فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مالي لا أسمع أنين العباس، فقال الرجل أنا أرخيت من وثاقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فافعل ذلك بالأسرى كلهم[٢].

وهكذا عامل النبي صلى الله عليه وسلم سائر الأسرى بإنسانية وكرامة كما عامل عمه العباس، فمع كونهم محاربين قصدوا قتال المسلمين واستئصال شأفتهم، إلا أن المسلمين قابلوا إساءتهم بالإحسان، وظلمهم بالصفح والغفران.

(١) البداية والنهاية (٣/٣٧٣-٣٧٤)، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) محمد صلى اللّه عليه وسلم (١/٢٤٦)، محمد رشيد رضا (ت: ١٣٦٩هـ).

المطلب الثاني: الثقة في العدول من غير المسلمين

نظر الإسلام إلى سائر الناس باعتبارهم أبناء جنس واحد، فجميعهم إخوة في الإنسانية، وزكَّى جوانب الخير عند الجميع، وفتح لأتباعه الإفادة من خبرات السابقين، والانتفاع بهم، وأباح استعمال المشركين في قضاء المصالح، ما دام أنهم عدولٌ يأمن المسلمون جانبهم، لم تعهد منهم خيانة، ولم يُؤثر عنهم غدرٌ أو وشاية، والسيرة النبوية حافلة بهذا التقدير والاحترام حيث استعمل النبي صلى الله عليه وسلم بعض المشركين في أمور هامة، ففي رحلة الهجرة استعمل رجلاً من المشركين كدليل وهو عبد الله بن أريقط فعن عائشة رضي الله عنها: قالت "واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر رجلا من بني الديل، ثم من بني عبد بن عدي هاديا خريتا – الخريت: الماهر بالهداية – قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث، فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل الديلي، فأخذ بهم أسفل مكة وهو طريق الساحل"(١).

ففي استئجار النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من المشركين في رحلة الهجرة، مع خطورتها وتوقف مستقبل الرسالة الإسلامية على تمامها، شاهد بتعايش الإسلام مع المخالفين، وتبادل المنافع معهم، والثقة في ذمتهم، والتعاون بينهم لتحقيق المصلحة العامة شريطة اتصافهم بالأمانة، وصدقهم في ما تعاهدوا عليه.

ولما ضاقت الأرض على المسلمين بمكة أذن النبي صلى الله عليه بالهجرة إلى الحبشة ثقةً في عدل النجاشي، ورغبة في أمنه وجواره، كما أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزكَّاه لأصحابه، وهذا بُعد إنساني عظيم فمع أنه كان

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام (٨٨/٣) ح (٢٢٦٣) [(هاديا) مرشدا في الطريق. (غمس يمين حلف) دخل في جملتهم. والحلف العهد وكانوا يغمسون أيديهم في الماء ونحوه عند التحالف. (ثور) جبل بأسفل مكة]

على النصرانية ولمَّا يُسلم بعد إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم اعترف بما عليه من خلال حميدة وصفات كريمة فقد أقام ملكه على العدل ويكفي أنه لا يظلم عنده أحد فعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: «لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بأرض الحبشة مَلِكا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده؛ حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه، فخرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار وإلى خير جار آمنا على ديننا، ولم نخشَ منه ظلما[1].

وقد اعترف الصحابة المهاجرون إليه وفي مقدمتهم جعفر بن ابي طالب بفضل النجاشي، وأثنوا عليه بما هو أهله وأخبروه عن العلة في اختيار بلاده والنزول بداره دون سائر البلاد حيث قالوا: "فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك"[2].

وكان هذا الثناء تأليفاً لقلبه، وحملاً له على النصرة والمنعة، فتزكية جوانب الخير في الإنسان عامل كبير في الاستقامة عليه، والتشبث بغيره من خصال الخير، حيث وجد مردودها الجميل وأثرها الحسن عند الناس مع احتساب أجرها وفضلها عند الله.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، جماع أبواب المبعث، باب الهجرة الأولى إلى الحبشة والثانية وما ظهر فيها من الآيات (٣٠١/٢)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤٠٥هـ.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث جعفر بن أبي طالب (٢٦٦/٣) ح (١٧٤٠)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير إسحاق، وقد صرح بالسماع. ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦ / ٢٧)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، وقال الشيخ شعيب : إسناده حسن.

المطلب الثالث: تشريع أخلاق الحرب في الإسلام

الناظر في السيرة النبوية يتضح أمامه أن الغزوات والسرايا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفتوح الخلفاء من بعده، كانت ذات طابع إنساني بعيد المدى، فهدفها الرئيس هو إنقاذ الإنسانية من ظلم الطغاة وتعسف الملوك، وهدايتهم إلى طريق الهدى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، كما أن الحرب في الإسلام استثناء والسلام أصل، كما أن للحرب مبادئ إنسانية وأصولاً أخلاقية، وقواعد نظرية تجريبية، يمكن بيانها من خلال ما يلي:

أولاً: عدم التفريق بين الأم وولدها الصغير

إن عاطفة الأمومة تأسر القلوب، وتملك زمام النفوس، فتجعل الأم تضحي بنفسها لأجل ولدها، تحفظه بروحها، وتكلؤه بعينها، تمنحه الخدمة، وتؤثره بالنعمة، تسهر لراحته، وتقوم بحمايته، تنعم بقربه، وتبأس بفراقه، فلو فرِّق بين أم وولدها ساءت حالها واضطربت حياتها، كما أن الولد تضيع مصالحه، ويعظم مصابه، ويفقد صوابه، لذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يفرَّق بين الأم وولدها في السبي فعن شهاب بن حبيب، عن أبيه: أنه غزا مع أبي موسى لفتح تُستَر فلما فُتحت وأخذ السبي قال أبو موسى: «اختر من الجند عشرة رهط ليكونوا معك على هذا السبي حتى نأتيك» ثم مضى وراء ذلك في الأرض حتى فتحوا ما فتحوا من الأرض، ثم رجعوا عليه، فقسم أبو موسى بينهم الغنائم، فكان يجعل للفارس سهمين وللراجل سهما، وكان لا يفرق بين المرأة وولدها عند البيع"[(١)]،

يفهم من هذا ورود النهي عن التفريق بين الأم وولدها مطلقا حال الحرب وحال السلم، ففي البيع ورد النهي عن التفريق فعن علي رضي الله عنه: "أنه فرَّق

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب ما ذكر في تُستَر (٣/٧) ح (٣٣٨١٥)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.

بين جارية وولدها، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وردَّ البيع"[١] وقال مالك رحمه الله: لا يفرق بين الأم وولدها، إذا كانوا صغارا، ولا ينبغي ذلك[٢].

وقد راعت الشريعة الإسلام هذه الجوانب الإنسانية وحافظت على المشاعر النبيلة وقوَّت عاطفة الأمومة، وأعلت شأنها وجعلت إكرام الأولاد وحسن تربيتهم حجاباً من النار فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم علينا، فأخبرته فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترا من النار»[٣].

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أماً حريصة على التماس طفلها من السبي أقرها على ذلك، وزكَّى عملها، وضرب المثل بالرحمة والشفقة التي ملأت قلبها فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[٤].

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب العمل في قسم الغنائم (١ / ٣٧٦) ح (٩٥٧)، تحقيق: بشار عواد معروف – محمود خليل، الناشر: مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤١٢ هـ.

(٢) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في التفريق بين السبي (٣٣٢/٤) ح (٢٦٩٦)، وقال الشيخ شعيب: حسن لغيره.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من (٢ / ١١٠) ح (١٤١٨)، وأخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٠٢٧/٤) ح (٢٦٢٩).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٨/٨) ح (٥٩٩٩)، وأخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢١٠٩/٤) ح (٢٧٥٤).

ثانياً: الرحمة بالشيوخ والنساء والصبيان

الجهاد في الإسلام يدور بين الدفع والطلب، فالدفع رد لاعتداء المعتدي وكف له عن الظلم، وأما الطلب فيكون لنشر الحق وإزالة الحواجز والعوائق في سبيل تخليص الشعوب من جور الحكام وتعسف السلاطين، والقتال إنما يكون بين المقاتلة، فلا يعتدى على من لم يشارك في القتال من الشيوخ والنساء والصبيان، فالإسلام دين الرحمة والعدالة، "ومن أبرز ما يؤكد هذه الحقيقة موقفه من الضعفاء والنساء والأطفال في حال النّزال والقتال والتقاء الصفين، لأن هؤلاء المستضعفين ليسوا أهل شوكة ولا مكيدة في الحرب، ولا ذنب لهم في الغالب فيما جره عليهم أهلوهم الكفرة من الصد عن سبيل الله ومحاربة الإسلام، فلا يجوز قتلهم ولا التنكيل بهم، إلا إذا كان الشيخ الهرم محاربا للمسلمين برأيه أو بأي وسيلة تمكنه، أو حاولت المرأة قتل أحد من المسلمين فيجوز قتلها دفاعا عن النفس، وأما الطفل فلا يتصور منه ذلك فهذا النمط من الرحمة والعطف في الحروب والمعارك الشديدة لا مثيل له في أي مبدأ من المبادئ قديما وحديثا، وتاريخ الحروب البشرية شاهد صدق بذلك"(١).

فالرحمة بالشيوخ النساء والصبيان في الحرب جانب إنساني رفيع، رغب الإسلام فيه وحض عليه، وجاءت السيرة النبوية فصوَّرته أنموذجاً عملياً ومثلاً تطبيقياً، ولقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ وجعله من أهم التوصيات التي يجب أن يجعلها كل أمير جيش أو سرية نصب عينيه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته

(١) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف (٢ / ٥٤٨)، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط: الأولى، ١٤١٢هـ.

بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا"(١).

فالمرأة لا تُقتل إلا دفاعاً عن النفس إذا شاركت في القتال، وحاولت قتل أحد المسلمين كما حدث في غزوة حنين فعن عبد الرحمن بن أبي عمرة قال: "مر النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين بامرأة مقتولة، فقال: "ألم أنهَ عن هذا؟ ". فقال رجل: "أردفتها فأرادت أن تقتلني، فقتلتها، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفنها"(٢).

والحديث ورد في الصحيحين دون ذكر سبب الورود فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازي، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والصبيان»(٣).

وهكذا امتازت الحروب الإسلامية بهذا المبدأ، فلا يقتل إلا من يتأتى منه القتال، أما الذين لا يد لهم في القتال ولا قدرة عليه، فالشريعة الإسلامية تنهى عن قتلهم وترويعهم.

ثالثاً: النهي عن الإفساد والتخريب

والحروب في الإسلام هي آخر الدواء ومنتهى المراحل، فلا تنشب الحرب في أغلب أحوالها إلا رداً لعدوان الظالمين وطغيان الجائرين، وتكون بعد الدعوة

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام على البعوث (١٣٥٧/٣) ح (١٧٣١).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، باب عقر الشجر بأرض العدو (٢٠١/٥) ح (٩٣٨٣)، حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ، قال ابن حجر: "ورواه ابن أبي شيبة من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، وهو مرسل قلت: "رجاله ثقات، رجال الصحيح".

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتل الصبيان في الحرب (٦١/٤) ح (٣٠١٤)، وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٣٦٤/٣) ح (١٧٤٤).

للإسلام، وعرض الجزية، ثم الإمهال إن رفضوا، ثم بعدها تكون الحرب وغايتها الفتح والإصلاح، وهداية الشعوب وتبصيرهم بمقصد خلقهم ومنتهى مصيرهم، وتركهم بالخيار دون إكراه من أحد، وإحياء للحريات والقضاء على طبائع الاستعباد والاستبداد، بل إن للشعوب الاختيار المطلق في أن يعتنقوا الإسلام أو يبقوا على دين أسلافهم وهذا ما حدث مع سائر البلاد المفتوحة كبلاد الشام والمغرب ومصر والعراق والأندلس وغيرها.

ولهذا جاءت الحروب في الإسلام بمنأى عن الإفساد بعيدة عن التخريب ووردت التعاليم النبوية تنهى عن صور التخريب أثناء الحرب فعن القاسم، مولى عبد الرحمن أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى رجلا غزا قال: «ولا تقطع شجرة مثمرة، ولا تقتل بهيمة ليست لك بها حاجة، واتق أذى المؤمنين»[١].

وكان الخلفاء الراشدون سائرين على درب رسول الله صلى الله عليه وسلم، متمسكين بمنهجه القويم فقد جاء في وصية أبي بكر الصديق لبعض جنده أنه بعث الجيوش إلى الشام، وبعث أمراء، ثم بعث يزيد بن أبي سفيان فقال له وهو يمشي: إما أن تركب، وإما أن أنزل، قال أبو بكر رضوان الله عليه: «ما أنا براكب، وما أنت بنازل، إني احتسبت خطاي في سبيل الله» – ويزيد يومئذ على ربع من الأرباع – قال: " إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له، وستجد قوما قد فحصوا عن أوساط رؤوسهم من الشعر وتركوا منها أمثال العصائب فاضربوا ما فحصوا عنه بالسيف، وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا، ولا تعقرن نخلا، ولا تحرقنها، ولا تجبن، ولا تغلل، الذين فحصوا عن رؤوسهم الشمامسة، والذين حبسوا أنفسهم

(١) المراسيل لأبي داود (١/ ٢٣٩)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ.

الذين في الصوامع"[١].

وعن ابن طاوس، عن أبيه قال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عقر الشجر، فإنه عصمة للدواب في الجدب»[٢]

وأما ما حدث في غزوة بني النضير فإن النبي صلي الله عليه وسلم كان منه ما توهموا أنه سيقطع نخلهم بعد أن استطال حصارهم، فاحتجوا عليه صلي الله عليه وسلم بأنه نهى عن التخريب وعيبه، وكيف يقطع النخل مع هذا؟ والحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقطعه وإن هم بقطع النخل إفزاعا لهم، وتخويفا ليسارعوا بالاستسلام، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم، ويرمون الحجارة من فوقها، وكان لا بد أن ينزلهم من صياصيهم، وهي الحصون، والآية الكريمة صريحة في أنه أمر بقطع الثمار، لا بقطع الأصول بل أبقي ما أبقى قائما علي أصوله كصريح الآية، ولو كان صلي الله تعالى عليه وسلم قد قطع الأصول ما بقي نخيل تقوم عليها ثمار، وبالتالي فلا يجوز التخريب إلا إذا ألجأت إليه ضرورة حربية، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول إليهم إلا بهدمه، أو تكون الأشجار غابة كثيفة، قد اتخذوها مستترا يكمنون للمسلمين فيها، وينقضون عليهم من مساترها[٣].

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجهاد، باب عقر الشجر بأرض العدو (١٩٨/٥) ح (٩٣٧٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجهاد، باب عقر الشجر بأرض العدو (٢٠٠/٥) ح (٩٣٧٩).

(٣) خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم (٢ /٦٦١-٦٦٢)، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، ١٤٢٥ هـ.

المطلب الرابع : البعد الإنساني في العلاقات مع المخالفين

والناظر في السيرة النبوية بتمعُّن وتأمل يدرك أن علاقات النبي صلى الله عليه وسلم مع المخالفين سادها الخلق العظيم، وعمها الصدق المبين، وتمثلت الأبعاد الإنسانية في كثير من جوانبها والتي يمكن بيانها فيما يلي:

أولاً : الوفاء بالعهود

أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد في غير آية فقال سبحانه: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}(١)، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}(٢) قال ابن جرير: إن الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم، ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين بعقود تكون بينهم بحقّ مما لا يكرهه الله. وجائز أن تكون نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهيهم عن نقض بيعتهم حذرا من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين، وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلة عددهم في آخرين لكثرة عددهم، وجائز أن تكون في غير ذلك(٣).

وعلى هذا فهذه الآية عامة في وجوب الوفاء بجميع العقود المشروعة التي تم التحالف عليها، وأُكِّدت بالأيمان المغلظة، وهذا ما رأيناه عملاً ملموساً في السيرة النبوية، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفاوض مع رسل قريش في صلح الحديبية، ومع أن بنود الصلح أجحفت بحقوق المسلمين، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم تنازل عن بعض الحقوق رغبةً أن يتم الصلح بين الفريقين، لهذا

(١) سورة النحل: الآية ٩١.
(٢) سورة الإسراء: من الآية ٣٤.
(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٧ / ٢٨٢).

أقام النبي صلى الله عليه وسلم بنود الصلح وهم لم يزالوا في مجلس الصلح، وكان من شروط الصلح ما قال سهيل بن عمرو: "وعلى أنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنا لم نقض الكتاب بعد» ، قال: فو الله إذا لم أصالحك على شيء أبدا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فأجزه لي» ، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: «بلى فافعل» ، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابا شديدا في الله"(١).

ففي هذا الموقف تجلى الجانب الإنساني في هذا الموقف فالكتاب لم يكتب بعد، لكن سهيل أصرَّ على ردِّ ابنه أبي جندل إلى مكة، وكان من المسلمين المستضعفين بمكة حبسه أبوه سهيل وقيده بالسلاسل وعذَّبه، فلما سمع بقدوم المسلمين خرج ليلحق بهم ولقي عناءً في رحلته لكن وجد الشرط عقبة في طريقه، واستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم أباه سهيل فأبى إلا ردَّه، فأمضى النبي الوفي ما تم الشرط عليه وترك أبا جندل لهم، وكان ابتلاءً عظيماً لأبي جندل ولجميع المسلمين، لكنهم لم يجدوا من طاعة الله ورسوله بداً، فهذه صورة للوفاء بالعهد في أحلك الظروف وأشد الأحوال.

وذات يوم تبعث قريش أبا رافع رسولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيقع

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط الشروط (١٩٣/٣) ح (٢٧٣١).

الإسلام في قلبه، ويرغب في ألا يرجع إليهم أبدا، فيأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: «إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرُد، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع» . فذهب إليهم، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم(١).

ويفهم من هذا أن عقد الكافر يراعى كعقد المسلم، ويؤدى له عقد الأمان إذا أجاره أحد المسلمين، فلا يعتدى على ماله أو نفسه أو منفعته، وأنكر الرسول صلى الله عليه وسلم حبس الرسل إذ هناك من ينتظر جوابهم، ولا يصلهم الجواب دونه، لأجل العقد الذي تم بينه وبينهم وشمل زمن الذهاب والإياب، فهذا الموقف النبوي من أعلى درجات التسامي بالإنسانية إلى الفضيلة والرقي والبر والوفاء.

وهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه منعه أن يشهد بدراً مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أمر النبي له أن يفي لقريش بعهدهم فعن حذيفة بن اليمان، قال: ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيْل، قال: فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدا، فقلنا: ما نريده، ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرناه الخبر، فقال: «انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»(٢).

ثانياً: التثبت عند نقض الخصم للعهد

ولم تلبث قريش أن نقضت العهد الذي أُبرم مع ما فيه من أمور مجحفة بالمسلمين، وكان من شروط الصلح أن من أراد أن يدخل في عهد قريش فعل، ومن أراد أن يدخل في عهد المسلمين فعل، فدخلت بنو بكر في عهد قريش،

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب الإمام يُستجنُّ به في العهود (٣٨٧/٤) ح (٢٧٥٨)، وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، والمعنى "لا أخيس بالعهد": لا أنقض العهد، ولا أفسده.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد (١٤١٤/٣) ح (١٧٨٧).

ودخلت خزاعة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، "وكان بين بني بكر وبين خزاعة ترة قديمة، وعداء متوارث، يرجع تاريخه إلى ما قبل البعثة، وجاء الإسلام فحجز بينهم، وتشاغل الناس بشأنه، فلمّا كانت الهدنة، ودخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فبيّت نفر من بني بكر لخزاعة وهم على ماء لهم فأصابوا منهم رجالا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسّلاح، وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلا، حتّى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلمّا انتهوا إليه قالت بنو بكر لبعض رجالهم: إنّا قد دخلنا الحرم، إلهك! إلهك! فقال: لا إله اليوم! يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك، وخرج عمرو بن سالم الخزاعيّ، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فوقف عليه، وأنشد أبياتا، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة، وسأله النصر والنجدة، ويخبره بأنّ قريشا أخلفوه الموعد، ونقضوا ميثاقه المؤكد، وأنّهم بيّتوا وهم على ماء لهم وقتلوا ركّعا وسجّدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نُصِرت يا عمرو بن سالم!» وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستوثق منهم الخبر، ويعذر إلى قريش، فبعث إليهم رجلا يخيّرهم بين إحدى ثلاث خلال، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة، أو يبرؤوا من حلف من تولّى كبر هذا النقض، وقاد الحملة على خزاعة، وهم بنو نفاثة من بني بكر، أو ينبذ إليهم على سواء، فأجابه بعض زعمائهم: لكن ننبذ إليهم على سواء، وبذلك برئت ذمّة قريش، وقامت عليهم الحجّة"[1].

اتضح هنا أن ما فعلته قريش إنما هو اعتداء وإخلال بالشرط وابتداء بالقتال، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم يتبيَّن منهم، ويخيِّرهم فأبوا إلا

(١) السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (١ / ٤٤٤-٤٤٥)، دار ابن كثير – دمشق، ط: الثانية عشرة – ١٤٢٥هـ.

نقض العهد وإعلان الحرب، وهكذا رسَّخ رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ التثبت عند خيانة العدو العهد، وهذا جانب إنساني رفيع فيه تجنب العقاب بالظنة.

ثالثاً: حماية السفراء والرسل وإكرامهم

ومن الجوانب الإنسانية في معاملة المخالفين حماية السفراء وتأمينهم حتى يبلغوا موطنهم، فلا يعتدي عليهم أحد، بل تُكرم وفادتهم، وتُحسن معاملتهم، فهذا التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي عن تكريم النبي صلى الله عليه وسلم له فيقول: "فلما أن فرغ من قراءة كتابي، قال: " إن لك حقا، وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا سفر مرملون" قال: فناداه رجل من طائفة الناس، قال: أنا أجوزه، ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية، فوضعها في حجري، قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أيكم ينزل هذا الرجل؟ " فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري، وقمت معه، حتى إذا خرجت من طائفة المجلس، ناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: " تعال يا أخا تنوخ " فأقبلت: أهوي إليه، حتى كنت قائما في مجلسي الذي كنت بين يديه"(١).

ويتضح هنا الجانب الإنساني في معاملة الرسل، فلم يصرف رسول هرقل حتى أعدَّ له جائزة قيمة، واستضافه أحد أصحابه لأنهم كانوا على سفر حينها، ويظهر إكرامه له أنه أدناه من مجلسه، فأجلسه بين يديه، وكل هذا كان له الأثر العظيم في إسلامه بعد ذلك، وقد دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث التنوخي عن النبي صلى الله عليه وسلم، (٢٤ / ٤١٨) ح (١٥٦٥٥)، وأورده ابن كثير في "البداية والنهاية" وعزاه إلى أحمد، ثم قال: هذا حديث غريب، وإسناده لا بأس به! تفرد به الإمام أحمد. وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" وقال: رواه عبد الله بن أحمد وأبو يعلى، ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك.

فرغب عنه وقتها، فتركه وشأنه.

وقد تضافرت الأدلة الواضحة على وجوب عصمة دماء الرسل والموفدين وحمياتهم من أي أذى حتى لو اختلفت وجهات النظر في المفاوضة معهم، وتكلم المبعوث الموفد إلى أرض الدولة الإسلامية بكلام لا يتفق مع احترام عقائد المسلمين مما يوجب قتله أو فشل المبعوثين السياسيين في القيام بمهمتهم، فيظل لهم حق التمتع بالحماية والحصانة حتى يعودوا إلى بلادهم التي يأمنون فيها ومن المقرر في السيرة النبوية أن الرسل لا تُقتل مهما بلغوا من الكفر والزيغ والسفه، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة فلم يقتل رسولا مسيلمة الكذاب (ابن النواحة وابن أثال)، فعن ابن معيز السعدي قال: مررت على مسجد من مساجد بني حنيفة، فسمعتهم يشهدون أن مسيلمة رسول الله، فرجعت إلى عبد الله بن مسعود، فأخبرته، فبعث إليهم الشرط فأخذوهم فجيء بهم إليه، فتاب القوم ورجعوا عن قولهم فخلى سبيلهم، وقدم رجلا منهم يقال له عبد الله بن النواحة فضرب عنقه، فقالوا له: تركت القوم وقتلت هذا؟ فقال: إني كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا إذ دخل هذا ورجل وافدين من عند مسيلمة، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتشهدان أني رسول الله؟» فقالا له: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال: «آمنت بالله ورسله، لو كنت قاتلا وفدا، لقتلتكما» ، فلذلك قتلته، وأمر بمسجدهم فهدم[1]، فلم يقتله النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان رسولاً حينها، فلما زالت الصفة عنه، استتابه ابن مسعود هو ومن معه فأبى إلا الردة والكفر فأمر بقتله حداً.

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب السير، باب في النهي عن قتل الرسل، (٣ / ١٦٢٦) ح (٢٥٤٥)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م، قال المحقق: إسناده حسن.

رابعاً: صلة المخالف ومواساته

ويتجلى البعد الإنساني بصورة تبعث على الإعجاب وتدعو إلى الإعظام والإكبار إذا علمنا أن الإسلام دعا إلى بر المخالف إذا كان معاهدا، وظهر هذا واضحاً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حال الحرب، فالصلة والمواساة لم تقتصر على المسلمين، بل شملت المستأمنين والذميين إذا قحطوا وأصابتهم الجوائح، قال الإمام السرخسي: "لا بأس بأن يصل المسلم المشرك قريبا كان أو بعيدا، محاربا كان أو ذميا لحديث «سلمة بن الأكوع قال: صليت الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت مس كف بين كتفي، فالتفت فإذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: هل أنت واهب لي ابنة أم قِرفة؟ قلت: نعم. فوهبتها له. فبعث بها إلى خاله حزن بن أبي وهب، وهو مشرك وهي مشركة. وبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خمس مائة دينار إلى مكة حين قحطوا، وأمر بدفع ذلك إلى أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية ليفرقا على فقراء أهل مكة. فقبل ذلك أبو سفيان، وأبى صفوان وقال: ما يريد محمد بهذا إلا أن يخدع شُباننا»[(١)].

فالصلة أمر محمود عند ذوي العقول، كما أن الإهداء إلى المخالف تأليف لقلبه ورد لشره وهو لا شك من مكارم الأخلاق.

(١) شرح السير الكبير (٩٧/١)، لشمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت: ٤٨٣هـ)، نشر: الشركة الشرقية للإعلانات، ١٩٧١م.

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج

١- تبيَّن أن السيرة النبوية تحمل بين جنباتها أبعاداً إنسانية، عميقة الهدف، عظيمة الأثر، شملت جميع الأحوال وكافة الظروف، فاستوعبت حال السلم وحال الحرب.

٢- ظهر أن السيرة النبوية عملت على سيادة مبدأ المساواة وقضت على مظاهر العنصرية والازدراء، وحاربت صور السخرية والاستهزاء، وأبطلت مظاهر الاستعباد.

٣- أولت السيرة النبوية اهتماماً كبيراً بذوي الحاجة، فكانوا بالمجتمع الإسلامي مكرمين، وتمكنوا من القيام بالأعمال وتولِّي المهام.

٤- ثبت أن حسن العهد وردَّ الجميل جانب إنساني، حاز قصب السبق فيه رسول الله.

٥- تبين أن النبي صلى الله عليه وسلم سنَّ جوانب إنسانية تمثلت في العفو عن غلاظ الأعراب، والأخذ على أيديهم بهوادة ورفق، وتمثلت في ملاطفة الصبيان ومخالطتهم والمزاح معهم ومداعبتهم.

٦- تبيَّن أن الحرب لم تعُق تحقيق الأبعاد الإنسانية، فمواقف السيرة النبوية شاهدة على كثير من الأبعاد الإنسانية، فظهر هذا في تعامل الأسرى وإكرامهم، وفي الوثوق بالعدول من غير المسلمين، والاستعانة بهم في محل اختصاصهم.

٧- ثبت أن للحرب في الإسلام قيماً إنسانية وأخلاقاً راقية لم يُسبق إليها، ولم يُسمع بها على مدار التاريخ، تمثلت في الرحمة بالشيوخ والنساء والصبيان، والنهي عن التخريب والإفساد، وعدم التفريق بين الأمهات والأولاد.

٨- تجلَّت الجوانب الإنسانية في معاملة المخالفين حيث الوفاء بالعهد والتثبت عند نقض الخصم، وتأمين السفراء وحمايتهم، وصلة المخالفين ومواساتهم.

ثانياً: التوصيات

١- أُوصي بضرورة تفعيل هذه الجوانب الإنسانية في تعامل المسلمين مع إخوانهم وأعدائهم.

٢- يجب على الباحثين تسليط الضوء على الأبعاد الإنسانية للسيرة النبوية في مختلف مجالاتها وسائر مناحيها.

٣- يجب على الدعاة إظهار الجوانب المشرقة للسيرة النبوية وأن يخرجوا في عرض السيرة ومدارستها من دائرة التقليد إلى حيز التجديد.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

فهرس المصادر

القرآن الكريم

١-البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢- تاريخ الرسل والملوك، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت، ط: الثانية - ١٣٨٧هـ.

٣- تثبيت دلائل النبوة، لأبي الحسين القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي (ت: ٤١٥هـ)، الناشر: دار المصطفى - شبرا- القاهرة.

٤- تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط: الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م

٥- جامع الأصول لابن الأثير، دار الكتب العلمية، الأولى ١٣٨٩-١٣٩١هـ.

خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة، ١٤٢٥ هـ.

٦- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، د. أحمد غلوش، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط: الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٨م.

٧- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي، د. رؤوف شلبي، دار القلم، الكويت، ط الثالثة.

٨- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى ١٤٠٥هـ.

٩- سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

١٠- سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر - ومحمد فؤاد عبد الباقي - وإبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط:

الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
١١- سنن الدارمي: تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤١٢هـ – ٢٠٠٠م.
١٢- السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، ط: الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.
١٣- السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير– دمشق، ط: الثانية عشرة ١٤٢٥هـ.
١٤- شرح السير الكبير، لشمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت: ٤٨٣هـ)، نشر: الشركة الشرقية للإعلانات، ١٩٧١م
١٥- صحيح الأثر وجميل العبر من سيرة خير البشر، تأليف: نخبة من الأساتذة، مكتبة روائع المملكة، جدة، ط: الأولى، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.
١٦- صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٧- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٨- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ)، المحقق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
٢٠- محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لجمال الدين يوسف بن حسن ابن المبرد الحنبلي (ت: ٩٠٩هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة

النبوية، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٢١- محمد صلى اللّه عليه وسلم، محمد رشيد رضا (ت: ١٣٦٩هـ).
٢٢- المراسيل لأبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٣- مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط: الأولى، ١٤١٢هـ.
٢٤- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
٢٥- مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.
٢٦- مسند البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط: الأولى، (من ١٩٨٨م إلى ٢٠٠٩م).
٢٧- المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- الهند، ط: الثانية ١٤٠٣هـ.
٢٨- معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ)، عالم الكتب، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
٢٩- المنهل الحديث في شرح الحديث، د. موسى شاهين لاشين، دار المدار الإسلامي، ط: الأولى، ٢٠٠٢ م.
٣٠- الموطأ، لمالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف – محمود خليل، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢٣٥
التمهيد	٢٣٨
المبحث الأول: البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال السلم	**٢٤٠**
المطلب الأول: سيادة مبدأ المساواة في الإسلام	٢٤١
المطلب الثاني: الشفقة على ذوي الحاجة وتمكينهم من المهام	٢٥٠
المطلب الثالث: حسن العهد	٢٥٤
المطلب الرابع: العفو عن غلاظ الأعراب	٢٥٨
المطلب الخامس: ملاطفة الصبيان والرحمة بهم	٢٦٠
المبحث الثاني: البعد الإنساني في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حال الحرب	**٢٦٢**
المطلب الأول: الوصية بالأسرى وحسن التعامل معهم	٢٦٢
المطلب الثاني: الثقة في العدول من غير المسلمين	٢٦٤
المطلب الثالث: تشريع أخلاق الحرب في الإسلام	٢٦٦
المطلب الرابع: البعد الإنساني في العلاقات مع المخالفين	٢٧٢
الخاتمة	٢٧٩
النتائج	٢٧٩
التوصيات	٢٨٠
فهرس المصادر	٢٨١
فهرس الموضوعات	٢٨٤